أهل البيت (ع) في آثار أبي العلاء المعرّي

الدكتور جعفر دلشاد
عضو الهيئة العلمية
قسم اللغة العربية ـ جامعة اصفهان

عاش ابو العلاء في زمن كان للعلماء والأدباء مكانة مرموقة، فنبغ بين هؤلاء بما اكتنزه من العلوم، وبما قدمه من آثار أدبية قيّمة، وخير شاهد لهذا الادّعاء ما قاله خليل مردم بك: «لو لم يوجد أبو العلاء المعرّي، أو لو وُجد ومات صغيراً لما قام مقامه أحد، ولبقي مكانه في ديوان الأدب العربي خالياً الى الآن، والى ما لا يمكن تحديده في ما يأتي من الزّمان. والادباء من هذا النوع قليل من كلّ أمّةٍ، ينفس الدهر بهم على البشر، ولايجود بواحد منهم الاّ نادراً في مئات السنين»[1].

من اللاّزم ان نضع نصب أعيننا حياة هذه الشخصية العظيمة في فترتين منفصلتين. فالفترة الأولى تمتد حتى الثالثة والاربعين من عمره؛ والفترة الثانية تبتدأ بها وتنتهي في السادسة والثمانين من عمره المعطاء، حيث توافيه المنية.

والمحاولة في هذه الدراسة هي معرفة عقيدة أبي العلاء تجاه أهل البيت عليهم السلام من خلال رسالة الغفران، وكيف يتطرق الى هذه النخبة المنتجبة من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وعترته الطاهرة، وهل لهؤلاء منزلة وشأن من رؤيته الخاصة؟

أبو العلاء المعرّي في سطور:

أبو العلاء المعري من الشّخصيات الفذّة التي قلّما نجد نظيرها في عالم الأدب والشّعر، ولد عام ٣٦٣ هجرية، وكانت وفاته عام ٤٤٩ هجرية. وقد جاءت الآراء متضاربة في عقيدة أبي العلاء، فالبعض جعله موحداً لا يشرك بربّ العالمين، والبعض الآخر اتّهمه بالكفر ولكن الفاحص المدقق في هذه الآراء قد يصل الى هذه النتيجة أن حياة أبي العلاء يمكن ان توضع في اطارين متمايزين، الاطار الأول حياته في زمن الشباب وحتى يصل الى سن الاربعين أو يزيد بقليل. والاطار الثّاني: هو حياته بعد هذه الفترة وحتى وفاته، وهو في سن السادسة والثمانين من العمر.

فحياته في المرحلة الاولى كانت تمتاز بالاقبال على المعرفة والاطلاع على الأدب والأدباء والمرحلة الثانية كانت تقتصر على العزلة والاعتكاف، والتأمل واقبال الادباء عليه.

فعن المرحلة الاولى من حياته قالوا عنه الكثير. حتى انه اتُّهم بالزندقة لما كان يبديه من تشكيك في الأمور، وخير مثال وشاهد على ذلك ما جاء في كتاب نكلسن عن عقيدة أبي العلاء المعرّيّ ما هذا نصّه:

«واتهم أبو العتاهية بالزندقة على نحو ما اتهم به أبو العلاء المعري والآخرون الذين أهملوا تعاليم الاسلام الايجابية من أجل فلسفة أخلاقية قائمة على التجربة والتفكير»[٢].

والمؤلف نفسه يشير في مكان آخر من نفس الكتاب: أن أبا العلاء حبس نفسه عندما عاد من بغداد في بيته وأصبح نباتياً ومارس مظاهر الزهد الاخروي وأمضى بقية حياته الطويلة في عزلة نسبية[٣].

وفي المرحلة الثانية، وأبو العلاء يتطرق في لزومياته الى هذه الفترة بالذات، وكذا الحالة التي هو عليها بقوله[٤]:

أراني في الثّلاثة مِنْ سِجُونِ
فَلا تَسأَلْ عَنِ الخَبرِ النَّبيثِ
لِسَفْدي نَاظِري وَلزُومِ بَيْتي
وَكَوْنُ النَّفْسِ في الجَسَدِ الخَبِيثِ

ونجد «نكلسن» في موضع آخر من كتابه يصرح عن عقيدة أبي العلاء المعري بقوله:

«كان أبو العلاء موحداً ثابتاً في عقيدته، ولكن اعتقاده بالله، على ما يبدو، لم يعد فكرة ان كل الاشياء محكومة بقضاء لاينثني عن مرماه ولايمكن لاحد ان يسبر غور غوامضه ولا مهرب من سلطانه الواحد الاحدّ»[٥].

ومما ورد في «السفرنامه» لناصر خسرو عندما زار معرة النعمان حوالي سنة ٤٣٩ للهجرة وأبو العلاء فيها:

«كان فيها (أي معرة النعمان) رجل اسمه أبو العلاء المعري، أعمى، وهو رئيسها، وكان واسع الثراء، وعنده كثير من العبيد والخدم وكأن أهل البلد كله خدم له، أما هو فقد تزهد، فلبس الخشن، واعتكف في البيت، وكان قوته نصف منّ من خبز الشعير، لا يأكل غيره وقد سمعت أن باب قصره مفتوح دائماً، وأن نوابه وملازميه يدبرون أمر المدينة، ولا يرجعون اليه الا في الامور الهامة؛ وهو لايمنع نعمته أحداً، يصوم الدهر ويقوم الليل، ولا يشغل نفسه مطلقاً بأمر دنيوي.

يحيط به ماينوف على المائتي تلميذ جاءوا من مختلف الأصقاع لحضور محاضراته في الادب والشّعر»[٦].

أما طه حسين فانّه يصف أبا العلاء في مرحلته الثانية من حياته وصفاً دقيقاً غير مبالغ فيما يقول:

«هرم أبو العلاء وأصابته الشيخوخة ولكنا لا نعرف أنها أضعفت ملكة من ملكاته العقلية والخلقية. وانما قضى الرجل حياته ثابت النفس، راجح الحلم، مصيب الفكر، قوي العقل، صادق الذوق، معتدل المزاج الى أن أصابه المرض الذي مات فيه»[٧].

ففي هذه المرحلة بالذات يتجه الى تأليف كتابه القيم «رسالة الغفران» كأنه بعمله هذا يريد رجاء ربه، ويطلب العفو والمغفرة لما فرط من القول في عهد الشباب.

فالكتاب هذا فضلاً عن أنه موسوعة في الأدب والأدباء، وفي اللغة والنحاة، الا انه وضع على شكل مشاهد من يوم القيامة، وأن أبا العلاء يصور هذه المشاهد والمواقف حسب ما يراه، ويقف مع شخصيات وأدباء عاشوا في هذه الدنيا، سواء في العصر الجاهلي أو الاسلامي. يطرح فيه ما لديه من قدرة ابداع واطلاع ومعرفة في مجالات شتى.

فالذي يهمنا من هذه الدراسة هو موقف أبي العلاء المعري من الشفاعة والتشفع؟ ومن هم هؤلاء الذين يتشفع بهم المعري الشيخ، وهل ينحاز لفئة في عمله هذا

دون أخرى؟

أهل البيت (ع) في رسالة الغفران:

قبل أن نستعرض كتاب «رسالة الغفران» لابد من الاشارة الى أن أبا العلاء في المرحلة الثانية من عمره (بين الاربعين والثمانين) قد صنف كتابين قيمين هامين: الاول كتاب الفصول والغايات والثاني: رسالة الغفران.

فالكتاب الاول يختص بمدح الله تعالى وتمجيده فهو يحتوي على مواعظ وارشاد. فقد جاء الكتاب هذا باسلوب انفرد به الكتاب، حتى ان بعض أعدائه وحساده اتهموه بانه أراد معارضة القرآن بكتابه هذا. فالذي يتصفح هذا الكتاب يتبين له الحق، ويرى ان الكتاب بأجمعه في الله تعالى جل شأنه، ووصفه بما يستحقه، بالاضافة الى مجموعة من المواعظ والعظات. فالذي يريد معارضة القرآن لابد ان يتخذ نهجاً آخر.

فلنستمع الى الباحث المعاصر الاستاذ محمود حسن زناتي الذي قام بتحقيق هذا الكتاب. فقدم بعمله هذا خدمة لرواد الأدب حيث يقول:

«... والغرض الذي حدا بأبي العلاء الى انشاء هذا الكتاب بثه للطلبة ما وعاه صدره من نوادر العلم وغرائبه، وقد تخير لذلك أحسن مظهر يظهره فيه وهو «تمجيد الله والمواعظ» ليكون ذلك أقرب الى النفوس وفيه مثوبة وقربى»[٨].

أما القول بانه قصد به مجاراة القرآن الكريم أو معارضته فذلك من قول حساده، وكيف يريد ذلك وهو يمجد الله فيه أحسن تمجيد وأروعه، ويقر له بالعبودية والعجز!

على ان في الكتاب نفسه ما يدحض هذه المفتريات كلها حيث يقول: «علم ربُّنا ما عَلِمَ، أنّي ألّفتُ الكلم، آملُ رضاه المسلّم، وأتّقي سخطه المؤلم، فهب لي ما أبلغ به رضاك من الكلم والمعاني الغراب»[٩].

أما الكتاب الثاني «رسالة الغفران» فقد صور أبو العلاء المعري يوم الحساب وكيف أن الناس حشروا فيه. وكيف انه يلتقي بمجموعة من الأدباء والشعراء، يناقشهم فيه آراءهم. في قضايا أدبية وغيرها. وأما ما يهمنا في هذه الدراسة هو موضوع الشفاعة عند أبي العلاء المعري وكيف يتشفع بالنبي وبالعترة الطاهرة من أهل بيته ﷺ.

فالكتاب فضلاً عن هذا، فيه علم جمّ، من شعر ورواية، ونقد، ومقابلات، وتاريخ، ومعرفة بالاماكن والاشخاص، ومعرفة بالقرآن وتفسيره، واطلاع واسع على الرّوايات والأحاديث النبوية، وغيرها. وهيمنة على اللغة وما يتصل بها، والتفات خاص الى الفرق والاديان، وما خفي من حياة بعض العظماء.

مما جاء في رسالة الغفران:[١٠]

...آه لمصرع «الاعشى ميمون» و كم أعمل من مطية أمون! ولقد وودت أنه ما صدته قريش لما توجه الى النبي ﷺ وانما ذكرته الساعة:

وشمُولٍ تحسب العينُ، اذا
صُفِقَت جندعها نورَ الذُّبحْ
مثل ريح المسك زاكٍ ريحُها
صَبَّها السّاقي اذا قيلَ: توحْ

الى آخر الابيات وهي ثمانية، ثم يستطرد أبو العلاء في كلامه قائلاً:

ولو أنه أسلم، لجاز أن يكون بيننا في هذا المجلس. فينشدنا غريب الأوزان، مما نظم في دار الأحزان... فيهتف هاتف: أتشعر أيها العبد المغفور له لمن هذا الشعر؟ فيقول الشيخ: نعم حدثنا أهل ثقتنا عن أهل ثقتهم، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر... ان هذا الشعر «لميمون بن قيس ابن جندل...

فيقول الهاتف: أنا ذلك الرجل، منّ الله عليّ بعد ما صرت من جهنم على شفير، ويئست من المغفرة والتكفير... فيقول: أخبرني كيف كان خلاصك من النار.

وسلامتك من قبيح الشنار؟

فيقول: سجنتني الزبانية الى سقر، فرأيت رجلاً في عرصات القيامة يتلألأ وجهه تلألؤ القمر، والناس يهتفون به من كل أوب: يا محمد يا محمد، الشفاعة الشفاعة! نَمُتَّ بكذا ونَمُتَّ بكذا. فصرخت في أيدي الزبانية: يا محمد أغثني فان لي بك حرمة! فقال: يا علي بادره فانظر ما حرمته! فجاءني علي بن أبي طالب، صلوات الله عليه، وأنا أعتل كي ألقي في الدرك الاسفل من النار، فزجرهم عني، وقال: ما حرمتك؟ فقلت: أنا القائل:

ألا أيُّهذا السّائلي أين يمَّمَت
فانّ لها في أهل يثرب موعدا[11]

الى آخر القصيدة وهي تسعة أبيات، ثم يصف لنا أبو العلاء الموقف بقوله:

ويقول «الأعشى» قلت لعلي: وقد كنت أومن بالله وبالحساب وأصدق بالبعث وأنا في الجاهلية الجهلاء، فمن ذلك قولي:

فما أيبُلي على هيكل،
بناه وصَلَّب فيه وصارا[12]

الى آخر الابيات وهي ثلاثة، ويستمر في وصفه قائلاً:

فذهب علي الى النبيﷺ. فقال: يا رسول الله، هذا «أعشى قيس» قد روى مدحه فيك، وشهد أنك نبي مرسل، فقال: هلا جاءني في الدار السابقة؟ فقال: علي: قد جاء، ولكن صدته قريش وحبه للخمر، فشفع لي، فأُدخلت الجنة على أن لا أشرب فيها خمراً؛ فقرت عيناي بذلك، وان لي منادح في العسل وماء الحيوان، وكذلك من لم يتب من الخمر في الدار الساخرة، لم يسقها في الآخرة[13]

ونجد أبا العلاء في مسرحيته هذه، مسرحية القيامة التي صورها لنفسه، وأظهر فيها ما يكنه من اعتقاد تجاه الشخصيات التي ورد ذكرها فيها، نجده يشير بصراحة تامة الى أن من قاتل علياً يحاسب حساباً شديداً. لنقرأ هذه العبارات معاً من رسالة الغفران:

«... فيقولُ: أيكم تميم بن أبي؟ فيقول رجل منهم: ها أنا ذا. فيقول أخبرني عن قولك:

يادارَ سَلمَىٰ خَلاءً لا أُكَلِّفُها
إلّا المَرانةَ حتّىٰ تسأَمَ الدُّنيا

ما أردت بالمرانة؟ فقد قيل: أنك أردت اسم امرأة، وقيل: هي اسم ناقة، وقيل: العادة.

فيقول تميم: والله ما دخلت من باب الفردوس ومعي كلمة من الشعر ولا الرجز، وذلك أني حوسبت حساباً شديداً، وقيل لي: كنت فيمن قاتل علي بن أبي طالب»[14].

لعل أبا العلاء المعري له رأي في هذا، وهو أن من قاتل علياً عليه السلام فانه يحاسب حساباً عسيراً، ولربما رأى أن علياً عليه السلام الخليفة الرابع بعد رسول اللهﷺ وانه قد بويع من قبل المسلمين فلا بد أن تكون له زعامة الامة الاسلامية جمعاء، ومن تخلف عن هذا الأمر فانه قد شق عصا المسلمين، فكيف بمن يدخل في حرب مع خليفة الرسول الكريمﷺ، ولهذا يصور لنا أبو العلاء الموقف في يوم الحشر في الذي يقف في وجه علي عليه السلام فلابد من أن يواجه حساباً شديداً لموقفه الساخط من علي عليه السلام.

وفي مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة نرى أبا العلاء يصور لنا مكانة حمزة بن عبد المطلب عم الرسول (ص) وكيف أنه ذو منزلة وشأن، هو والصحابة في يوم الحشر، وكيف أن حمزة سيد الشهداء عليه السلام يرشده الى علي بن ابي طالب عليه السلام ليجعله شفيعاً له:

«فبئست مما عنده، فجعلت أتخلل العالم، فاذا أنا برجل عليه نور يتلألأ، وحواليه رجال تأتلق منهم أنوار. فقلت: من هذا الرجل؟ فقيل: هذا حمزة بن عبد المطلب صريع وحشي، وهؤلاء الذين حوله من استشهد من المسلمين في أحد...

وجئت حتى وليت منه فناديت: يا سيد الشهداء، يا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، يا ابن عبد المطلب! فلما أقبل علي بوجهه أنشدته الابيات. فقال: ويحك! أفي مثل هذا الموطن تجيئني بالمدح؟ أما سمعت الاية: «لِكُلِّ امْـرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يغْنِيهِ»[15] فقلت: بلى قد سمعتها، وسمعت ما بعدها: «وجُوُهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرةٌ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَة، تَرْهَقُها قَتَرةٌ أُولَئِكَ هُم ٱلكَفَرَةُ الفَجَرَةُ»[16].

فقال: اني لا أقدر على ما تطلب، ولكني أنفذ معك توراً (أي رسولاً) الى ابن أخي علي بن أبي طالب، ليخاطب النبي، صلى الله عليه وسلم، في أمرك فبعث معي رجلا، فلما قص قصتي على أمير المؤمنين، قال: أين بينتك؟ يعني صحيفة حسناتي»[17].

لعل في اعتقاد ابي العلاء المعري أن علياً ﷺ أعلى شأناً ومنزلة من عمه حمزة سيد الشهداء، فاذا كان حمزة قد لقب بسيد الشهداء، وهذا ما ذكرته كتب السير والتأريخ، فان علياً ﷺ قد لقب بأمير المؤمنين.

وبعد هذا الموقف، نجد ان المعري في رسالة الغفران يشير الى عترة الرسول ﷺ وهو في أحلك الاحوال وأشدها خوفاً من عذاب الملك الجبار، وكيف أنه في دار الدنيا كان يصفهم بالاخيار الطيبين، ثم يستطرد في كلامه مشيرا الى العترة ومن أفضل هذه العترة الطيبة، الزهراء ﷺ، وأقربها منزلة لدى الرسول العظيم ﷺ، ويستشفع بها، ويجعلها وسيلة بينه وبين الرسول ﷺ حيث يقول:

«...فطُفْت على العترة المنتجبين فقلت: أني كنت في الدار الذاهبة اذا كتبت كتاباً وفرغت منه: قلت في آخره: وصلى الله على (سيدنا محمد) خاتم النبيين، وعلى عترته الاخيار الطيبين. وهذه حرمة لي ووسيلة، فقالوا: ما نصنع بك؟ فقلت: ان مولاتنا فاطمة، عليها السلام قد دخلت الجنة مذ دهر، وانها تخرج في كل حين مقداره أربع وعشرون ساعة من الدنيا الفانية فتسلم على أبيها، وهو قائم لشهادة القضاء، ثم تعود الى مستقرها من الجنان، فاذا هي خرجت كالعادة، فاسألوا في أمري بأجمعكم، فلعلها تسأل أباها فيّ. فلما حان خروجها ونادى الهاتف: ان غضوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد، صلى الله عليه وسلم. اجتمع من آل أبي طالب خلق كثير، من ذكور و اناث، ممن لم يشرب خمراً، ولا عرف قط منكراً، فلقوها في بعض السبيل، فلما رأتهم قالت: ما بال هذه الزرافة؟ ألكم حال تذكر؟ فقالوا: نحن بخير، أنا نلتذُّ بتحف أهل الجنة. غير أنَّا محبوسون للكلمة السابقة، ولا نريد ان نتسرَّع الى الجنة من قبل الميقات، اذ كنا آمنين ناعمين بدليل قوله: ﴿أنَّ الّذينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا الحُسْنىٰ أُولئَك عَنْها مُبْعَدونْ. لا يَسمَعُونَ حَسِيسَها وهَمْ في ما أشْتَهَتْ أنْفُسُهُمْ خالِدونَ. لايَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأكْبَرُ، وتَتَلَقّاهُمُ المَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الّذي كُنْتُمْ تُوعَدونَ﴾[18].

وكان فيهم علي بن الحسين وابناه محمد وزيد، وغيرهم من الأبرار الصالحين، ومع فاطمة، عليها السلام، أمرأة اخرى تجري مجراها في الشرف والجلالة، فقيل: من هذه؟ فقيل: خديجة ابنة خويلد ابن أسد بن عبد العُزَّى، ومعها شباب على أفراس من نور، فقيل: من هؤلاء؟ فقيل: عبد الله، والقاسم، والطيب، والطاهر، وابراهيم بنو محمد، صلى الله عليه وسلم[19].

ففي النص السابق، أمور تجدر بنا ان نقف عندها ونتأمل فيها، منها:

١ ـ اقتران الصلاة على الرسول الكريم ﷺ بالصلاة على العترة الطاهرة وهم الخيرة من العباد والطيبون من المؤمنين، ولماذا هذا الاقتران؟ وهل أن أبا العلاء قد التفت الى قول الرسول الاكرم ﷺ حيث يقول: لاتصلوا عليّ الصلاة البتراء. فسئل وما هي الصلاة البتراء يا رسول الله؟ فأجاب عليه آلاف التحية والسلام: أن تصلوا علي ولا تصلوا على آلي.

٢ ـ جعل أبو العلاء العترة الطيبة حرمة له ووسيلة

لما لهم من مكانة ومنزلة لدى الرسول العظيمﷺ.

٣ ـ المبادرة والاشارة الى أفضل هؤلاء العترة المباركة، بقوله: مولاتنا فاطمة، عليها السلام، قد دخلت الجنة مذ دهر. فدخولها محقق لا شبهة فيه ولا ريب. لماذا فاطمة دون النساء؟ لعل أبا العلاء ذلك المطالع النحرير قد قرأ مناقب الزهراءع وكيف أن الرسول أباها يشيد بمكانتها عندما يقول لها: فداها أبوها. أو أنه قد عثر على هذا القول: لولا عليع لما كان لفاطمة كفوءٌ.

أو أنه وجد في الصحاح قول الرسول الامينﷺ حيث يقول: فاطمة بضعة مني فمن آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله[٢٠]. فقرن صلى الله عليه وآله وسلم أذاها بأذاه، والقرآن الكريم يصرح بهذا الشأن: ﴿وَمِنْهُم الّذين يؤذونَ النَّبي وَيَقُولونَ هو أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خيرٍ لَكُمْ يُؤمِنُ بالله وَيُؤمِنُ لِلمُؤمِنينَ وَرَحْمَةً لِلّذينَ آمَنوا مِنكُم وَ الّذين يُؤْذُونَ رَسولَ الله لَهُم عَذابٌ أليمٌ﴾[٢١].

أو أنه وجد في بعض كتب السير أنهﷺ كان يقبل يد الزهراءع في بعض المناسبات؛ منها قبل سفره وبعد العودة منه. أم أن أبا العلاء قد اطمأن الى الرواية التي تذكر أن الرسول الكريمﷺ قبيل وفاته ولمدة تسعة أشهر كان يقف على باب فاطمة وهو في طريقه الى المسجد لاداء الفريضة واضعاً يديه على الباب تالياً قول الله العزيز: ﴿إنّما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُم الرِّجسَ أهلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطْهيراً﴾[٢٢].

أم انه اعتمد على الروايات الواردة في تفسير قوله تعالى في الكتاب العزيز: ﴿وَيُطْعِمونَ الطَّعامَ على حُبِّه مِسْكيناً وَيَتيماً وأسيراً﴾[٢٣].

أم هل أنه تأمل في سورة الكوثر وتفسيرها، وقد أقر معظم المفسرين أنها نزلت في فاطمة بنت رسول اللهﷺ. وأن المراد بالكوثر هي وذريتها، وأن مبغض الرسول هو الابتر. وخير مصداق للاية الشريفة وتحققها في يومنا هذا أن أبناء الزهراءع في العالم حالياً عددهم لايعد ولايحصى من شرق العالم الى غربه، وخاصة في البقاع الاسلامية، وأنهم معروفون بنسبهم، ويشهد لهم من يعيش معهم بهذه المنقبة السامية.

أو لعل أبا العلاء المعري قد قرأ أحاديث الرسول الكريمﷺ حين يقول: مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك»[٢٤] أو الحديث الآخر: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف»[٢٥].

أو لعله قد قُرِئ عليه تفسير الآية الشريفة: ﴿قُلْ لا أسْألُكم عَليه أجْراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُرْبَى﴾[٢٦]

والقربى هم أهل بيت الرسالة عليهم آلاف التحية والثناء، وأن مودة أهل البيتع واجبة بمقتضى الآية الكريمة، وكل من وجبت مودته وجبت طاعته. ولعل من الاقوال المتواترة لدى المسلمين عامة في شأن الزهراءع هو هذا القول: «أن غضّوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد» صلى الله عليه وآله وسلم. ولم يفت أبو العلاء أن يشير الى هذه المنقبة وكيف أن سيدة النساء أختصت بهذه الميزة وانفردت بها دون غيرها من نساء العالمين حتى والدتها السيدة المكرمة خديجةع. فالهاتف لهذا القول هو من قبل رب العظمة والجلالة، ولعله جبرائيلع. ثم يتطرق الى آل أبي طالب عليهم السلام، وهم العترة الطاهرة الذين زكوا أنفسهم في دار الغرور، وقد وصفهم بأنهم لم يذوقوا الخمر مطلقاً في دار الدنيا، وأنهم منزهون من الرجس وأنهم حقيقون بأن يكونوا من سادات الجنة وروادها. وكيف ان الآيات القرآنية تبشر هؤلاء الفئة المنتجبة الطاهرة بما أكتسبوه من حسنات في الدار الفانية، وأدخروا ما استطاعوا ليوم «لايَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنونَ الاّ مَنْ أتى الله بِقَلبٍ سَليم»[٢٧].

مما يلاحظ في هذا النص أن أبا العلاء لم يتطرق في رسالته هذه الى نساء النبيﷺ اطلاقاً حتى عائشة،

ولعل هذا الأمر ما يثير التساؤل ويوجب الدهشة؟ فالذي عليه عامة المسلمين من اخواننا أهل السنة أن عائشة هي أم المؤمنين فلماذا تغافل أبو العلاء عن ذكرها؟ أم هل انه كان يعتقد انها حاربت الامام علياً عليه السلام ومما ذكر آنفاً ان من قاتل علياً عليه السلام فسوف يحاسب حساباً شديداً؟!

اذن لنرى من هم العترة من وجهة نظر أبي العلاء؟ فالزهراء عليها السلام أولاً. وهي في مقدمة من ذكرهم من العترة، بذلك الوصف الرائع، حين تدخل ساحة القيامة وبتلك الأبهة الرائعة التي لا تجد لها نظيراً لسائر النساء الطاهرات؟ ثم يذكر علي بن الحسين، زين العابدين وسيد الساجدين عليه السلام، ثم ابناه محمد بن الباقر عليه السلام وزيد الشهيد، وآخرين.

ففي هذا النص نرى أن أبا العلاء قد جعل منزلة خديجة عليها السلام بعد منزلة ابنتها فاطمة الزهراء عليها السلام ثم جعل ابناء رسول الله صلى الله عليه وآله بعدهما منزلة وشأناً.

وبعد مشاهد متعددة من يوم الحشر وتوسله بالنبي الكريم صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام والزهراء عليها السلام والعترة الطاهرة يصور لنا أبو العلاء كيف أن الله جل وعلا قد قبل هذا التشفع بهم، فغفر له ذنوبه وقبلت توبته بواسطة هؤلاء الأزكياء النّجباء.

بعد هذا كلّه يستمر أبو العلاء في وصف المشاهد المتتالية في ذلك اليوم العسير بقوله:

«فقالت تلك الجماعة التي سألت: هذا ولي من أوليائنا، قد صحت توبته، ولا ريب أنه من أهل الجنة، وقد توسل بنا إليك، صلى الله عليك، في أن يراح من أهوال الموقف، ويصير الى الجنة فيتعجل الفوز. فقالت لاخيها إبراهيم، صلى الله عليه: دونك الرجل. فقال لي: تعلق بركابي. وجعلت تلك الخيل تخلل الناس وتنكشف لها الامم والاجيال. فلما عظم الزحام طارت في الهواء، وأنا متعلق بالركاب، فوقفت عند محمد، صلى الله عليه وسلم، فقال: من هذا الاتاوي؟ (أي الغريب) فقالت له: هذا رجل سأل فلان وفلان[٢٨] ـ وسمت جماعة من الائمة الطاهرين ـ فقال: حتى ينظر في عمله. فسأل عن عملي فوجد في الديوان الاعظم وقد ختم بالتوبة، فشفع لي، فأذن لي في الدّخول»[٢٩].

ماذا يقصد أبو العلاء في النص الآنف الذكر بالائمة الطاهرين؟ هل يقصد بذلك العترة المنتجبة؟ الذين مرّ ذكرهم في الفقرات السابقة وأنهم المنزهون من الرجس وأنهم قادة الأمة وساداتها وأن الرسول صلى الله عليه وآله لم يعبأ بأحد سوى العترة، ولم يلتفت الى سواهم، وأنهم قرة عينه في الدنيا وفي العقبى؟

لنقرأ معاً فقرة أخرى من رسالته:

ولما انصرفت الزهراء، عليها السلام، تعلقت بركاب ابراهيم، صلى الله عليه. فلما خلصت من تلك الطموش، قيل لي: هذا الصراط فاعبر عليه. فوجدته خالياً لاعريب عنده فبلوتُ نفسي في العبور، فوجدتني لا أستمسك. فقالت الزهراء، صلى الله عليها، لجارية من جواريها: قُلانُ أجيزيه، فجعلت تمارسُني وأنا أتساقط عن يمين وشمالٍ... فلما جزت، قالت الزهراء، عليها السلام، قد وهبنا لك الجارية فخذها كي تخدمك في الجنان[٣٠].

فالسؤال الذي يطرح نفسه هو هل أشار أبو العلاء المعري في رسالة الغفران الى أزواج النبي صلى الله عليه وآله أو الى الصحابة الكرام؟

فالجواب انه لم يتطرق مطلقاً الى أزواج النبي الكريم صلى الله عليه وآله، أما بالنسبة الى الصحابة فانه قد تطرق اليهم في هذه الرسالة بقوله:

«أليس الصحابة، عليهم رضوان الله، كلهم كان على ضلال، ثم تداركهم المقتدر ذو الجلال؟ وفي بعض الروايات ان عمر بن الخطاب خرج من بيته يريد مجمعاً كانوا يجتمعون فيها للقمار، فلم يجد فيه أحداً فقال: لأذهبنّ الى الخمار، لعلّي أجد عنده خمراً. فلم يجد عنده شيئاً. فقال: لأذهبن ولأسلمن»[٣١].

من الأفضل أن يترك التعليق على هذا النص للقارئ

الكريم.

هناك تساؤل وهو أن أبا العلاء لماذا يتجه بعد رسول الله ﷺ الى علي بن أبي طالب ؑ ولم يتجه الى الخلفاء الراشدين من بعده بمن فيهم علي ؑ وانما يضع الامام علياً ؑ والزهراء ؑ شفعاءه الى الله ورسوله؟

فهل ان الجواب لهذا التساؤل هو ان أبا العلاء كان يعتقد ان الثلاثة الأول من هؤلاء كانوا قد جاءوا الى الحكم من قبل الناس. فهم رجال حكومة ثم رجال دين؟! وبعبارة اخرى انهم لم ينتخبوا من قبل رسول الله ﷺ؟

أو أن أبا العلاء قد شغل فكره قول الرسول ﷺ: من كنت مولاهُ فهذا عليّ مولاه؟!

أو أنه قد راجع مجموعة من التفاسير التي اشتهرت في عهده ورأى الآيات النازلة في شأن علي ؑ؟!

أم أنه راجع كتب الصحاح فعثر على فضائل علي ؑ منها: أفضلكم علي. أتقاكم عليّ، والى غيرها من الأحاديث الكثيرة.

أم أنه تصفح كتب التأريخ فوجد الامام علياً ؑ أشجعهم في ساحة الوغى. وأذبهم عن دين الله، والى غيرها من الصفات الحميدة.

أو هل أن أبا العلاء وجد الامام علياً قد زهد عن الدنيا ولا يريد الّا وجه الله ورضاه عندما أقبل الآخرون عليها؟!

وهل ان الزهراء ؑ تمتاز بمكانة خاصة من بين النساء، من مهاجرين وأنصار، ومن نساء النبي ﷺ أنفسهن، وخاصة خديجة ؑ التي ضحت بالنفس والنفيس لنشر الدعوة الاسلامية؟!؟!

أم هل أنه قد قرأ هذا الحديث النبوي الشريف: لولا علي لما كان لفاطمة كفوٌ.

أم هل سمع حديث الكساء من أحد حيث يقول الرسول الكريم ﷺ عن صاحب العزة والجبروت: والله ما خلقت سماءً مبنية ولا أرضاً مدحية ولا قمراً منيراً... الا لمحبة هؤلاء الخمس الذين هم تحت (هذا) الكساء...!

أم أن أبا العلاء قد أبهرته آيات من سورة المباهلة حين يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٣٢].

وقد جعل الله علياً في الآية بمثابة نفس الرسول. ونساءنا، الزهراء ؑ، فهو من بين الرجال أفضل. وهي من بين النساء فضلى؟

أم هل تأمل في خطبة الزهراء ؑ عندما ألقتها في مجلس ابي بكر وهي تحتج بحجج لاتشوبها شبهة ولاشك، وتبين الحق وتظهر بالادلة ما كان عليه القوم قبل رسول الله وكيف أصبحوا؟

وبعد هذا كله نجد أن أبا العلاء لم يصرح بالجواب لهذه التساؤلات ولم يظهر السبب في تشفعه بعلي بن أبي طالب ؑ وبالزهراء ؑ.

ولكن هناك مثل معروف، رُبّ كناية أبلغ من تصريح. فالذي يُستنبط من هذه التصورات، وهو في أشد الحاجة الى من يتوسط لديه ويتشفع له في ذلك الموقف الحرج، والحرج جداً. وكيفية لجوئه الى هؤلاء يدل على مدى اعتقاده بهم، وحبه لهم واجلاله اياهم، وأنهم الصفوة المختارة، بل صفوة الصفوة. والله اعلم حيث يجعل رسالته.

النتيجة:

يبدو لي أن الدراسة الحقيقية لهذا العبقري يجب أن ترتكز على الفترة الثانية مع الالتفات الى الفترة التي سبقتها. ولما كان الامر كذلك، فلابد من الاهتمام بكل صغيرة وكبيرة تطرق اليها هذا العالم الجليل في الفترة من حياته، علماً بأن رسالة الغفران قد حررت في هذه الفترة بالذات. ومن خلال هذا البحث الموجز، يمكن ان تُستنتج أمور؛ منها:

١ ـ ان أبـا العـلاء المـعري يـتطرق بـعد شـخصية الرسـول الكريمﷺ الى أشخاص هم أقرب الناس اليه، ويـجعلهم شـفعاءه لدى الرسـول العـظيمﷺ؛ مـثل: حمزة بن عبد المطلب، عمه، وعلي بن أبن أبي طالبؑ، وفاطمة الزهراءؑ.

٢ ـ أبو العلاء يشير الى العترة الطاهرة، وهم أقرباء النبيﷺ وأحباؤه، كما يذكر بعض الائمة الهداة من أهل بيت الرسالة مثل: زين العابدين، علي بن الحسين، ومحمد بن علي الباقر، وجعفر بن محمد الصادق عليهم صـلوات الله تـعالى وسـلامه، والى آخـرين مـن هـذه الصفوة.

٣ ـ المـعري لم يشـر الى زوجـات النـبيﷺ، بـل يكتفي بـذكر خـديجة سـلام الله عـليها فـقط، ويـضعها موضعاً هو أقل درجة من ابنتها الزهراءؑ.

٤ ـ ان أبا العلاء لم يتناول في رسالته هذه أحداً من خلفاء الرسولﷺ سوى عليؑ، مشيداً به قائلاً:

«وعليّ له سابقة، ومحاسن كثيرة رائقة»[٣٣].

لقد شغف أبو العلاء بحب أهل البيت عليهم السلام، وهـو فـي أشـد الحـاجة الى الشـفاعة عـند أهـوال يـوم القيامة. فهل يمكننا القول انه كان علوي الهوى والعقيدة، محباً لاهل بيته، إلا أنه لم يصرح بهذا الأمر تصريحاً في مصنفاته، وانما جاءت هذه العقيدة جلية من خلال أثره هذا بهذه الكيفية، وهو على علم بما يقول؟ الله أعلم.

الهوامش

١ ـ انظر: المهرجان الألفي لأبي المعرّي، صفحة ٥.

٢ ـ يراجع نكلسن، رينولد. تاريخ الأدب العـباسي، تـرجمـة الدكـتور صفاء خلوصي، المكتبة الأهلية، بغداد ١٩٦٧م، ص ٧١.

٣ ـ نفس المصدر، ص ٩٣.

٤ ـ المـعرّي، أبو العـلاء. اللـزوميات، دار صـادر بـيروت، ١٩٦١، ج ١: ٧٢.

٥ ـ نكلسن، المصدر السابق، صفحه ٩٥.

٦ ـ يراجع: نكلسن. نفس المـصدر، صـفحة ١٠٤ ـ ١٠٥. نـقلا عـن «سفرنامه» طبعة شيفر، باريس ١٨٨١.

٧ ـ طه حسين، من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، المجـلد الثالث، دار العلم للملايين ـ بـيروت، الطـبعة الاولى ١٩٧٤، صـفحه ٥٣٢.

٨ ـ انظر مقدمة الكتاب. تحقيق محمود حسن زناتي، المكتب التـجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت ١٩٣٨م. صفحة «د».

٩ ـ يراجع نفس المصدر، صفحة ٦٢.

١٠ ـ لأبي العلاء المعرّي، شرحها وحققها وفهرسها وقدم لها الدكـتور علي شلق، دار القلم، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨١، صفحة ٤١ ـ ٤٤.

١١ ـ المصدر نفسه، صفحة ٤٤.

١٢ ـ نفس المصدر، صفحة ٤٥.

١٣ ـ يراجع نفس المصدر، نفس الصفحة.

١٤ ـ نفس المصدر، صفحة ٨٩.

١٥ ـ سورة عبس، الاية ٣٧.

١٦ ـ سورة عبس، الآيات ٣٨ ـ ٤٢.

١٧ ـ المعرّي، أبو العلاء. المصدر السابق، صفحة ٩٣ ـ ٩٤.

١٨ ـ سورة الأنبياء، الآيات ١٠١ ـ ١٠٣.

١٩ ـ المعرّي، أبو العلاء. المصدر السابق، صفحة ٩٧.

٢٠ ـ الطبري، محبّ الدين، ذخائر العقبى، صفحة ٢١.

٢١ ـ سورة التوبة، الآية ٦١.

٢٢ ـ سورة الاحزاب، الاية ٣٣.

٢٣ ـ سورة الدهر، الاية ٨.

٢٤ ـ انظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، صفحة ٢٧، وابن حجر. الصواعق المحـرقة صفحة ١٥٢، ١٨٦، ١٨٧ وكـذا سـبط ابـن الجـوزي، تـذكرة الخواص، صفحة ٣٢٣.

٢٥ ـ الألوسي، محمود شكري، مختصر التحفة، الاثني عشرية، صفحة ١٥٢.

٢٦ ـ سورة الشورى، الآية ٢٣.

٢٧ ـ سورة الشعراء، الايات ٨٨ ـ ٨٩.

٢٨ ـ لعل الأصح: فلاناً وفلاناً.

٢٩ ـ انظر: المصدر السابق، صفحة ٩٧ ـ ٩٨.

٣٠ ـ يراجع المصدر السابق، صفحة ٩٨ ـ ٩٩.

٣١ ـ المعري أبو العلاء، رسالة الغفران، شرحها وحققها وفهرسها وقدم لها الدكتور علي شلق، دار القلم، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١، صفحة ٢٦٦.

٣٢ ـ سورة آل عمران، الاية ٦١.

٣٣ ـ رسالة الغفران، صفحة ٢٥٦.

المصادر

١ ـ ابن الجوزي، عبد الرحمن. تذكرة خواص الأمة في معرفة الائمة، طهران، ١٢٨٧ هـ ق.

٢ ـ الألوسي، محمود شكري. مختصر التحفة الاثنى عشرية، طهران، ١٣٦٣.

٣ ـ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. تاريخ الخلفاء، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا. مؤسسة الثقافة، ١٤١٤ق. ١٩٩٣م.

٤ ـ الطبري، أحمد بن عبد الله ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، القاهرة، مكتبة القدس ١٣٥٦هـ ق.

٥ ـ العسقلاني، ابن حجر. الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، تعليق: عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٨٥ق. ١٩٦٥م.

٦ ـ المعري، أبو العلاء، اللزوميات، دار صادر، بيروت ١٩٦١م.

٧ ـ المعري، أبو العلاء، رسالة الغفران، شرحها وحققها وفهرسها وقدم لها الدكتور علي شلق، دار القلم، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م.

٨ ـ المهرجان الالفي لابي العلاء المعري.

٩ ـ زناتي، محمود حسن. الفصول والغايات، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت ١٩٣٨م.

١٠ ـ طه حسين. من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الاولى ١٩٧٤م.

١١ ـ ناصر خسرو، سفرنامه، طبعة شيفر، باريس ١٨٨١م.

١٢ ـ نكلسن، رينولد، تاريخ الادب العباسي، ترجمة الدكتور صفاء خلوصي، المكتبة الاهلية في بغداد ١٩٦٧م.

* * *